الرياض

حوار الداخل بين الترف والحاجة) 3(
نعم هي مسؤوليتنا.. ولكن كيف؟!

عبدالله الطويرقي

لنفترض جدلاً، أن الرئيس الأمريكي بوش الابن وقع على قرار بإعلان الحرب على المملكة إن هي لم تسلم الرموز الحركية الدينية التي وردت على لسان الرسول الغامض القادم من عمق الصحراء الذي ظهر مع ابن لادن في الشريط المهرّب من تورا بورا للجزيرة القطرية، وإن لم تبادر الرياض أيضاً لإلقاء القبض على المتعاطفين مع تنظيم القاعدة من السعوديين، وإن لم تسارع لإغلاق الهيئات والمنظمات الإغاثية والدعوية التي وردت في قوائم الحظر العدلية الأمريكية والتي تجاوزت الـ 180هيئة ومنظمة عربية وإسلامية مشبوهة في أعمال إرهابية حتى إشعار آخر.. وأخيراً وليس آخراً إن هي لم تبادر لإصلاحات جذرية لنظمها الفكرية والتربوية والاجتماعية وفقاً لنموذج الديمقراطية واقتصاد السوق كما يقول صاحب فرضية نهاية التاريخ.. ولو افترضنا جدلاً ان الرياض ضربت عرض الحائط بكل مطالب البيت الأبيض، وطلبت من أمريكا أن تبلط البحر كما يقال ،فهل سيكرر المشهد الأفغاني نفسه في أهم وأخطر منطقة استراتيجية في حسابات أمريكا والغرب جله في الوقت الراهن؟! بطبيعة الحال، قد يكشف لنا هذا السيناريو المغرق في الخيال إن هو تم فعلياً، ان أمريكا لم تعد فقط الشرطي الكوني ذي اليد الطولى في الردع وحسم النزاعات وإعادة التوازنات بتأديب الخارجين على قانون الكاوبوي، أقول تكون أمريكا قد بلغت ذروة الجنون وأعلى مراتب إرهاب الدولة والابتزاز والتخويف للشعوب والدول كما لم يحدث من قبل في التنظيم الدولي وسيجد العالم كله أمريكا المتفردة بالقوة العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية تمارس الإرهاب على الأنظمة والكيانات السيادية الأخرى وبما قد ينسف التنظيم الدولي الراهن وعلى رأسه الأمم المتحدة على غرار انهيار عصبة الأمم المتحدة وقيام الحرب العالمية الثانية، ومن ثم خلق حالة من اللامعقول في العلاقات الدولية وبما يعيد أنظمة العالم لمناخ القوى المتعددة والكتل والامدادات ومواجهات قد تحمل الفناء للعالم كله هذه المرة.. وإذا افترضنا أن أوهام النصر الأمريكي في أفغانستان والذي يعرف الجميع بما فيهم الصقور الأمريكيون بأنه لم يحقق أهدافه المعلنة باستثناء تنصيب حكومة مؤقتة، ستدفع بصانع القرار الأمريكي ليدير العالم كما تشتهي واشنطن أن يكون العالم عليه، ووفقاً للنموذج الأمريكي، فستجد أمريكا نفسها على أولى خطوات التآكل النهائي بعد أن تكون فاتورة مدفوعاتها باهظة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً ناهيك عن مزيد من الأعداء وطوابير من الشكوكيين وعالم مليء بالحذر والتشاؤم وبما لا يبقى على وجود أمريكا إلا ضمن عبارة (ما كان يُعرف بالولايات المتحدة..).

في ظل الضجيج والجلبة التي تحدثها قوى المال والاقتصاد والنخب التشريعية والإعلام والدراسات في أمريكا وبريطانيا حول فصول التصفية القادمة في برنامج الحرية الدائمة، أقول في ظل كل هذا أن الإدارة الأمريكية التي لم تجن في أفغانستان غير قوائم ضحايا من الأفغان فاقت ما حصدته الطائرات القاتلة في 11سبتمبر ووضع سياسي انتقالي وغير مطمئن في وضع أفغانستان على عتبة دولة المؤسسات بعد الرحيل الأمريكي عن أفقر بلدان الأرض قاطبة، ستضع بيدها نهاية متسارعة للقوة العظمى إن هي استمرأت العمل بنموذج الضرب والاطعام ومن ثم الدمقرطة فيما بعد أفغانستان.

اليوم وكل ما يجري في مراكز الدراسات المتخصصة في أمريكا في ملفات المنطقة العربية والإسلام والتي تعمل خصيصاً للجان في مجلسي الكونغرس كالشؤون والعلاقات الخارجية والأمن القومي والاتصالات والمعلومات، وتلك المستقلة المعنية بالمصالح الأمريكية في الطاقة والتقانة وغيرها لا تنفك منذ الحادي عشر من سبتمبر عن طرح التصورات والمبادرات لسيناريوهات الحرية الدائمة بدءاً من عمليات أفغانستان وحتى اللحظة ،وذلك من خلال تمرير أكوام من التحليلات والتحريات للإعلام الأمريكي للأوضاع السياسية والاقتصادية والفكرية في العديد من البلدان العربية والإسلامية وبالأخص المملكة ومصر.. هذا بالإضافة للبدائل الاستراتيجية المتاحة والممكنة أمام صانع القرار في واشنطن حال أقرت الإدارة الشروع في ضربات عسكرية جديدة أو ممارسة حظورات اقتصادية وتجارية على دول يتم اختيارها كأهداف مستقبلية في الحرب على الإرهاب.

من يطلع على بعض هذه الطروحات سواء تلك التي تسرّب للصحافة الأمريكية أو تلك التي يتبناها ويروج لها أمثال السيناتور جوزيف بايدن وجون ماكين في لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس، أقول من يقدر له ذلك لا يساوره أدنى شك أن الشارع الأمريكي اليوم ضحية تتعرض لأبشع أنواع الدس والتزوير وبأسلوب بالغ الذكاء من جماعات ومصالح وقوى ضغط تسعى

لتجنيد امضاء دافع الضرائب لصالح أجندة من يرغبون في إعادة رسم التوازنات والقوى الاقتصادية والتجارية في مرحلة العولمة الراهنة.. وبالأخص في المنطقة العربية هنا ومع دولتين عرفتا بمواقفها المؤثرة على سيناريوهات الحل النهائي في الصراع العربي الإسرائيلي وضمنياً على أوضاع ما بعد الحل النهائي ومستقبل الدولة العبرية اقتصادياً وأمنياً واستراتيجياً.. الحقيقة أن صورة المملكة ومصر أخذت في التدهور والتراجع في الشارع الأمريكي تحت وطأة انهيار مفاوضات كامب ديفيد برعاية الإدارة الديمقراطية والتي وجهت لوماً عريضاً لعرفات الذي اتهمته واشنطن في حينها بالرضوخ لموقفي الرياض والقاهرة المناوئة للصفقة التي سعت إدارة الرئيس كلينتون لأكثر من 8أشهر قبل رحيلها لانجازها وتعزيز حظوظ الحزب الديمقراطي في البيت الأبيض لأربع سنوات أخرى.. هذا علاوة على الانتقاد العلني لتلكؤ الرياض والقاهرة في تشجيع الفلسطينيين على قبول عرض اعتبرته واشنطن وتل أبيب بأنه فرصة عمر للفلسطينيين.. أقول منذ انهيار كامب ديفيد الثانية وصورة الرياض بالأخص تتعرّض للتقزيم والتشويه الذي وصل في عهد إدارة الرئيس بوش الابن الذي أمضى قرابة العشرة أشهر منذ وصوله للسلطة وهو يمعن في سياسة رفع اليد عن العملية السلمية في المنطقة إلى الحد الذي تسرب فيه الإدارة الأمريكية للواشنطن بوست والنيويورك تايمز ما عُرف في حينه بأزمة زيارة الأمير عبدالله بن عبدالعزيز لواشنطن وأن العلاقات السعودية الأمريكية تمر بمنعطف خطر لم تعهده العلاقة بين البلدين على مدى نصف قرن من الزمان.. وفي الوقت الذي كانت فيه القوى المؤثرة والمهيأة لصناعة القرار في واشنطن أخذت موقفاً حاداً من الحكومة المصرية وصل إلى حد تمرير رسائل تأنيبية غير مباشرة من واشنطن للرئيس مبارك عبر كبار كتبة الصحف النافذة تعبر عن أصوات تطالب الإدارة هناك بالضغط على حكومة الرئيس مبارك بأوراق الإعانات تارة وحقوق الإنسان والإصلاحات المدنية تارة أخرى، كان الموقف من الرياض مختلفاً، ويبدو أن قناة المكاتبات الخاصة وغير المعلنة بين الأمير عبدالله بن عبدالعزيز والرئيس بوش على مدى ثلاثة أشهر كانت بمثابة المهدّى لقوى الإعلام وصناعة القرار في واشنطن في انتظار انفراج يعيد الأوضاع لطبيعتها للحؤول دون تعاطي الإعلام السياسي مع الرياض في الشارع الأمريكي بنفس التعاطي مع القاهرة.. وأثمرت اتصالات الأمير عبدالله الخاصة مع الرئيس بوش في حدوث تحوّل في الاتجاه عن سياسة رفع اليد وتجاهل السلطة الفلسطينية في مقابل تبني استراتيجية شارون الاستئصالية إلى حالة استعداد للعودة لدور الراعي وأخيراً تبني واشنطن لموقف ايجابي مع قيام الدولة الفلسطينية والذي كان مخططاً إعلان الحكومة الأمريكية عنه في احتفالات الأمم المتحدة.. ونجحت دبلوماسية وحنكة الأمير عبدالله في تحريك إدارة الصقور من موقف الرهان على مشروع شارون الاستئصالي لتركيع الفلسطينيين بقوة السلاح للجلوس معه على طاولة استسلام وليس سلام بعبارة أدق، إلى موقف مسؤول بعد أن وضع ولي العهد الأمير عبدالله أمام الرئيس بكل وضوح أن المملكة في ظل موقف كهذا مجبرة على أن تتعاطى مع مصالحها بصرف النظر عن شعارات الصداقة والمصالح المشتركة مع أمريكا أو غيرها.

ويبدو أن تحركاً بهذه القوة من الأمير عبدالله لم يكن وارداً في حسابات واشنطن التي اعتادت على دبلوماسية النفس الطويل للرياض في القضية العربية والخطاب التوفيقي الذي قدر ما يضع حساباً لاستعادة الحق الفلسطيني قدر ما يحرص على استمرارية المصالح المشتركة مع بلد مهم ومؤثر كالولايات المتحدة الأمريكية.. وأدركت العديد من القوى السياسية والمهيأة لصناعة القرار في الكابيتول على أن الرياض نفد صبرها ولم تترك على واشنطن أمامها إلا الخيار الأصعب ألا وهو مصالح الوطن وقضية الشارع العربي أياً كانت النتائج.. وظهر لواشنطن ان التمادي في سياسة رفع اليد عن واحدة من أخطر مناطق الصراع في العالم في الوقت الذي تؤيد فيه علناً سفاحاً مثل شارون وتتبنى حلوله ووعوده وتطلق يده بالسلام الأمريكي ليعبث في الشعب والأراضي الفلسطينية كيفما يحلو له وبحماية من أمريكا، مسألة لم تعد مقبولة ،بل ولا مبرر لاحتمالها ودماء الأبرياء الفلسطينيين تراق على مدى تسعة أشهر هي فترة بوش الابن في البيت الأبيض.. وفي الوقت الذي كان يسير فيه كل شيء كما رُسم له، فوجئ العالم كله بالهجوم على مبنى التجارة العالمية والبنتاغون في الحادي عشر من سبتمبر الفارط.. وحدث ما لم يكن في الحسبان، وإن هي إلا أيام وتعلن أمريكا على العالم أن 15سعودياً متورطون في أحداث سبتمبر وأن ابن لادن زعيم تنظيم القاعدة مسؤول عما حدث، وإن هي إلا أسابيع وتصبح المملكة ونظامها السياسي والاجتماعي موضوعاً مفضلاً ويومياً لهيئات القصص الإخبارية واستطلاعات التحري الصحافي وأعمدة الرأي في وسائل الإعلام وفي دهاليز صناعة القرار الأمريكية، ولتحوّل يا سبحان الله من دولة صديقة ومقربة لدولة شريرة وخارجة على القانون وكل ما فيها مشكوك فيه بعدائه لأمريكا بلا حدود.. متابعة ما تطرحه وسائط الاتصال والمعلومات اليوم في أميركا وبريطانيا فعلاً مخيف في كل شيء.. مخيف في الأسلوب وفي المضامين من الأفكار وفي الحلول، حقيقة كل الصور التي توجه للشارع الأميركي عن الإسلام ودولة تمثل قلب العالم الإسلامي أقل ما يقال عنها انها ضرب من اللامعقول ولا يعني إلا تدميراً لصورة ومصالح القوة العظمى والنموذج الذي يصفّي الشركاء والحلفاء في طرفة عين لأنه براجماتي وذرائعي .ومن الصعب جداً الوقوف به.. ويبدو أن هذا ما سيكون عليه النظام العالمي الجديد في الألفية الثالثة وزوال الأمم المتحدة وبزوغ واشنطن كلاعب أوحد حتى ظهور قوة أو قوى عظمى أخرى في وقت لاحق.

نحن فعلاً اليوم بحاجة ماسة للتفكير في مدى وجاهة أكوام الادعاءات الأميركية التي طالت أدواراً لهيئات العمل الإسلامي الدعوي والإغاثي هنا، والتي ندرك سلفاً هنا أنها قامت من أجل أغراض ومهام نبيلة سواء للمسلمين أو غيرهم من الديانات الأخرى.. فأميركا اليوم تجرّم وتحاكم وتعاقب ولا تقبل من كائن من كان حتى إبراز ما لديها من أدلة واثباتات حول كل أو بعض من أدرجتهم في القوائم السوداء من هيئات ومؤسسات مالية وخيرية.. ولا نتوقع لا من أميركا ولا من تحالف الغرب

معها أن يتعاطوا مع كل ما هو تحت مظلة إسلامية بمسؤولية وأن يتفهموا وجهة نظرنا.. ولذلك قد يكون من الضروري لنا البدء في مراجعة كافة أشكال العمل الإسلامي الخيري والدعوي والتعليمي وبالأخص تلك التي تعمل خارج الحدود كونها تحمل اسم المملكة ودعم الحكومة والشعب على السواء ومسؤوليتنا أن نعرف حتى تفاصيل أعمالها ومن ينتسبون لها والقائمين عليها والجهات التي ترتبط بها فقط لنكون على بيّنة من الأمر ولنحمي مصالحنا وأدوارنا ولا نستغل من أفراد أو مجموعات لا تلتقي معنا في حقيقتها حتى في الإسلام.. أقول بصرف النظر عما تراه أميركا أو تقول به أجهزتها الأمنية حيال هذه المنظمات والهيئات الإسلامية نحن مطالبون بالتحري عن كل ما يمت للعمل الإسلامي اليوم بصلة داخل وخارج تخومنا لكي لا يُساء لنا من حيث لا نعلم ولكي لا يتضرر من قامت من أجلهم هذه الهيئات والمنظمات الإسلامية عندما تعطّل أعمالها وتتوقف أنشطتها.

والأهم من هذا كله، اننا معنيون اليوم إن نحن عرضنا كل صغيرة وكبيرة في طبيعة عمل هذه الهيئات وحتى الأهلية منها التي تعمل في النشاط المصرفي أو التجاري، بالدفاع عنها والإعلان للعالم كله عن أدوارها ومهامها الإنسانية بكل ثقة وبلا خوف، أو وجل من وجودها وحماية كل هذا بتنفيذ ما يُثار حولها من ادعاءات وشبهات نحن نعلم بنسبة كبيرة أنها وقعت ضحية فقط لأنها ارتبطت بما أوصى من الجهات أو الجماعات التي عرفت بمواقف متطرفة أو أدوار مشبوهة مع القاعدة أو ما كان يعرف بالطالبان أو نظام المدرسة الإسلامية في باكستان استراتيجية الصمت اليوم وإن كانت ذات جدوى في وقت وظروف فارطة، فهي اليوم تلحق الضرر وأكبر ضرر بمن يتعاطاها في عصر المعلومة السلعة التي تتداول على نطاقات لا يتصورها عقل.. ومواجهة أكوام الصور والمفردات التي تعرّي بها أميركا اليوم كل ما هو إسلامي وكل ما هو سعودي غير ممكنة إلا بجهد منظم ومعلومات موثقة وأدوات ووسائط اتصال مماثلة وإلا بقينا نحرث في البحر كما يقال.. أميركا صحيح ان ما يجري فيها اليوم أقل ما يقال عنه انه ضرب من جنون العظمة وطريق مشرع نحو ديكتاتورية جديدة، ولكن ومع هذا فهي بلد قانون ومن الغباء أن تسقط من حساباتها كل الجهات والهيئات والمنظمات الإسلامية التي تسلطت إدارة الصقور على أصولها وجمدت رساميلها وتحفظت على أعمالها وبأسلوب همجي يذكر بسلطوية الأنظمة القمعية في العالم الثالث.

أقول انها مسؤوليتنا هنا قبل أميركا وغير أميركا في التوثق من سلامة واتزان أدوار وأنشطة كل ما له علاقة بالإسلام هنا في الداخل قبل الخارج لأنها مصلحتنا ووجودنا ونخطئ إن نحن تركناها للنوايا الحسنة والاجتهادات الفردية القابلة للخطأ والصواب ولم نضمن لها الأداء المؤسسي والهيكلي السليم.. نحن معلاً بحاجة اليوم للتحاور حول كل ما يمثل الإسلام وينتسب لهذا الوطن لا لشيء ،وإنما لضمان ألا نعطي فرصة لآخر يتصيد اليوم كل ما من شأنه تقزيم هذه الأمة وتحجيم وجودها.